مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 14 ع 02.
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

دور الدراسات الثقافية في إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي

The Role of Cultural Studies in Reshaping Social Awareness

أمل رشداوي Amel Rachdaoui *

rachdaoui.amel@univ-alger2.dz

ORCID: 0009-0002-4661-6399

جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 2/ الجزائر

DOI : 10.46315/1714-014-002-049

الإرسال: 2025/01/10 **القبول**: 2025/05/20 **النشر**: 2025/06/16

**

ملخص:

يتناول هذا البحث فكرة أن الدراسات الثقافية تمثل محاولة جريئة من الجيل الجديد لتعزيز إبداعهم، وإثبات وجودهم عبر استغلال "ثقافة السطح". وتعكس هذه الثقافة تحولًا من التركيز على القيم الاجتماعية العميقة إلى الانشغال بالمعايير السطحية السريعة، مما يؤدي إلى انتشار الدراسات الثقافية التي تتعارض مع ثقافة النخبة، وتساهم في نمو المجتمع. ومع تقدم تكنولوجيا المعلوماتية، أصبح الوصول السريع إلى الثقافة أمرا شائعًا بين المثقفين، خاصة في عصر وسائل التواصل الاجتماعي. ويعكس هذا التحول تطورًا في الإدراك لدى الأجيال الجديدة، التي لم تعد تولي اهتمامًا للمرجعيات الثقافية التقليدية، التي لم تعد تستهويها كثيرا. كما تهدف الدراسات الثقافية أحيانا إلى تحدي هذه المرجعيات وتفكيكها، مما يعكس انحرافًا عن الفن الحداثي الذي كان يعتمد على شفافية الواقع واستجابته العكسية.

كلمات مفتاحية: ثقافة السطح؛ القيم الاجتماعية؛ ثقافة النخبة؛ تكنولوجيا المعرفة؛ وسائل التواصل الاجتماعي؛ تفكيك المرجعيات.

Abstract:

This research addresses the idea that cultural studies represent a bold attempt by the new generation to enhance their creativity and assert their existence by exploiting "surface culture." This culture reflects a shift from focusing on deep social values to preoccupation with fast, superficial standards, which has led to the spread of cultural studies that contrast with elite culture and contribute to the growth of society. With the advancement of knowledge technology, quick access to culture has become a common approach among intellectuals, especially in the age of social media. This shift reflects a development in the perception of new generations, who no longer pay attention to traditional cultural references. Cultural studies aim to challenge and deconstruct these references, reflecting a deviation from modernist art, which relied on the transparency of reality and its reflective response.

Keywords: cultural studies; surface culture; social values; elite culture; knowledge technology; social media; deconstruction of references.

**

*- الباحث المُرسل: rachdaoui.amel@univ-alger2.dz

1- الصلة بين الدراسات الثقافية والوعي الاجتماعي:

تعد التجربة الثقافية وإعادة تشكيل الوعي الاجتماعي، موضوعًا يعبر عن العلاقة المتشابكة بين الثقافة والتغيير الاجتماعي، وكيف يمكن للتجارب الثقافية أن تؤثر في الأفراد والمجتمعات وتؤدي إلى تطور إدراك تطور الأشياء، أو تحول في الوعي الاجتماعي. وعليه تركز هذه الدراسة أو المقاربة على كيفية تأثير العوامل الثقافية مثل الفنون، والأدب، والموسيقى، والسينما، وغيرها من التعبيرات الثقافية، على بناء مفاهيم جديدة للهوية والانتماء، وكيف تساهم هذه التأثيرات في إعادة تشكيل الطريقة التي يرى بها الأفراد والمجتمعات أنفسهم والعالم من حولهم.

ومن القضايا التي لا ينبغي أغفالها في الراهن الثقافي هذه، أن الوعي الاجتماعي هو نتاج الفكر الإنساني وتعبير عن احتياجاته ومتطلباته، كما أنه جزء من النسق الثقافي الذي يتشكل من التفاعل داخل البنية الاجتماعية. لأنه تعبير عن عملية تفاعلية متبادلة، حيث يسهم الواقع الاجتماعي في بناء ثقافة الفرد والمجتمع، في حين تسهم الثقافة بدورها في تشكيل البنية الفكرية والذهنية للفرد والجماعة. وقد كانت هذه القضية موضوعًا للجدل بين الفلاسفة والمفكرين، فهناك من يرى أن الأدب والفن هما انعكاس للواقع، كما يعتقد جورج لوكاتش . George Lucas بينما يعبر آخرون عن وجهة نظر مغايرة، مثل ثيودور أدورنو Theodor W. Adorno الذي قال: "إن العمل الفني الناجح ليس ذلك الذي يحل التناقضات الموضوعية في تناغم زائف، بل هو الذي يعبر عن فكرة التناغم سلبًا بتجسيد التناقضات بشكل كامل في بنيته الداخلية". (صالح، ز، 2016، 74) وفي ضوء ذلك، تعد التجربة الثقافية بمثابة العمليات والتفاعلات التي يخوضها الأفراد أو الجماعات مع مختلف أشكال الثقافة، سواء أكانت تقليدية أم معاصرة. ويمكن لهذه التجارب أن تكون فردية أو جماعية، وقد تتضمن مشاركة في الأنشطة الثقافية، بالتعرف على تقاليد وثقافات أخرى، أو حتى التفاعل مع الأدب والفن والموسيقى التي تعكس واقعهم وتجاربهم. وعندما يعيش الأفراد هذه التجارب، فإنهم لا يتأثرون فقط بالجوانب الجمالية أو الترفيهية لها، بل يتبنون كذلك قوالب فكرية ومفاهيم جديدة قد تؤثر في فهمهم لذاتهم ومحيطهم الاجتماعي.

وتتعلق إعادة تشكيل الوعي الاجتماعي بتغير في الطريقة التي يفكر بها المجتمع؛ بشكل عام حول قضايا مثل العدالة، والحرية، والهوية، والمساواة. على الرغم من أن هذا التغيير لا يحدث بشكل مفاجئ أو مفروض، بل هو نتيجة تراكمية لتأثيرات ثقافية متنوعة، تلعب دورًا كبيرًا في توجيه وعي الأفراد والمجموعات. فمثلًا، عندما يواجه المجتمع أفكارًا جديدة من خلال الأعمال الأدبية أو الفنون البصرية، قد يبدأ أفراده في إعادة تقييم أفكارهم حول حقوق الإنسان، والتقاليد الاجتماعية، أو العلاقات بين الأفراد والجماعات.

وقد أشار دوركهايم إلى أن التغيير الاجتماعي هو نتيجة تفاعل معقد بين العوامل الثقافية والاجتماعية. وفي كتابه **"قواعد المنهج في علم الاجتماع"**، يوضح كيف أن القيم والمعتقدات تشكل سلوكيات الأفراد وتؤثر على التغيير الاجتماعي من منظور أن القيم الاجتماعية هي التي تحدد سلوك الأفراد وتوجههم نحو التغيير، "لقد حظيت الأنساق القيمية Value Patterns باهتمام العلماء والمفكرين في مختلف العصور، لما لها من أهمية في بناء المجتمعات وتطورها، وفي تجسيد روح التوازن والانسجام الاجتماعي، وفي تدعيم أواصر العلاقات الاجتماعية والفكرية والثقافية لأي مجتمع من المجتمعات. كما أنها تقوم بدور في بناء الفرد وتنمية شخصيته وتطويرها، بحيث يكون قادرًا على التكيّف مع مختلف مكونات المجتمع الذي يعيش فيه، محققة بذلك الهدف الأسمى الذي يسعى إليه الإنسان وهو التوازن المجتمعي" (عوض الغرايبة، أ،) ويمكن أن تكون هذه العملية معقدة وصعبة، بالنظر إلى أن الأفراد قد يواجهون مقاومة لتغيير معتقداتهم أو قيمهم، خاصة عندما تتعرض هذه المعتقدات لتهديد من الخارج، مثل الثقافة الغربية، أو تأثيرات العولمة. ومع ذلك، تسهم التجارب الثقافية في تشكيل وعي جديد يتناسب مع التحديات المعاصرة، ويساهم في بناء مجتمع أكثر تفاعلًا مع قضايا العالم الحالي.

وعلى الرغم من ذلك، فإن التجربة الثقافية ليست مجرد ترفيه أو ملاذ، بل هي أداة قوية لإعادة تشكيل الوعي الاجتماعي وتحفيز التغيير في المجتمع. ومن خلال التأثيرات الثقافية المختلفة، يصبح الأفراد قادرين على إعادة تعريف مفاهيمهم عن الذات والجماعة، وتطوير أفكارهم حول الحرية والمساواة والعدالة.

واستنادا إلى هذه الرؤية، تعتبر التجربة الثقافية أكثر من مجرد وسيلة للترفيه أو الهروب من ضغوط الحياة اليومية؛ فهي تمثل أداة فعالة لإعادة تشكيل الوعي الاجتماعي وتحفيز التغيير في المجتمع؛ إذ من خلال الانخراط في الفنون، والآداب، والموسيقى، يتعرض الأفراد لأفكار جديدة وتحديات متنوعة، مما يتيح لهم الفرصة لإعادة تقييم معتقداتهم وقيمهم. ومن شأن هذه التجارب أن تساهم في توسيع آفاقهم وتساعدهم على فهم أنفسهم ومكانتهم في المجتمع بشكل أعمق.

فعندما يتفاعل الأفراد مع الأعمال الثقافية، يصبحون قادرين على إعادة تعريف مفاهيمهم حول الذات والجماعة. فالفنون والأدب لا تعكس فقط القضايا الاجتماعية والسياسية، بل تثير أيضًا النقاشات حول موضوعات حساسة، مثل الحرية والمساواة والعدالة. ومن خلال هذه العملية، يتمكن الأفراد من تطوير أفكار جديدة حول هذه القيم الأساسية، مما يعزز من وعيهم الاجتماعي ويحفزهم على العمل نحو تغيير إيجابي في مجتمعاتهم.

بذلك، تصبح التجربة الثقافية عنصرًا محوريًا في تشكيل الهوية الفردية والجماعية، حيث تسهم في بناء مجتمع أكثر وعيًا وتقبلًا للاختلافات، مما يسهل التفاعل والتعاون بين الأفراد

والمجموعات المختلفة. إن الثقافة ليست مجرد ترفيه، بل هي قوة دافعة نحو التغيير الاجتماعي والتقدم. وهذا ما حاول تغليبه والكشف عنه توماس إليوت (2014، 29)، وهو يبحث عن المعاني المتعددة لكلمة الثقافة، فارتباطات هذه الكلمة -كما يقول- تختلف بحسب ما نعنيه من صلة لها بنمو فرد، أو نمو فئة أو طبقة، أو نمو مجتمع بأسره. لكن الأساس عنده هو ربط معنى الثقافة بالمجتمع. لأن ثقافة الفرد في تصوره تتوقف على ثقافة الفئة أو الطبقة، وثقافة الفئة أو الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع كله، الذي تنتمي إليه تلك الفئة أو الطبقة. كما انتقد إليوت الذين ربطوا كلمة الثقافة بالمعنى الذي يتصل بالفرد دون وصله بالمعنى الذي يتصل بالمجتمع، وهو يعني بذلك ما ذهب إليه ماثيو أرنولد في كتابه (الثقافة والفوضى)، واعتبر هذا الربط ناشئاً من خلو الصورة عند أرنولد من الأساس الاجتماعي. وفي هذا ما يشير إلى ترابط الثقافة الفردية مع البنية الاجتماعية العامة، حيث يرى أن ثقافة الفرد ليست كيانًا منعزلًا، بل تعتمد بشكل أساسي على الثقافة الجماعية للفئة أو الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها. ومن هنا، فإن ثقافة الفئة نفسها تتأثر بثقافة المجتمع الأكبر الذي تحتضنه. وتعكس هذه العلاقة التبادلية رؤية شاملة للثقافة كمفهوم يتجاوز الفردية ليتصل بالنظام الاجتماعي بأكمله. ولعل هذه الفكرة تسلط الضوء على انتقاد إليوت لفكرة حصر الثقافة في الفرد دون النظر إلى السياق الاجتماعي الذي يحيط به، حيث ينتقد إليوت، في هذا السياق، النهج الذي تبناه ماثيو أرنولد في كتابه "الثقافة والفوضى"، حين ربط الثقافة بالمعنى الفردي بعيدًا عن الأساس الاجتماعي. ويعتبر إليوت أن هذا المنهج قاصر لأنه يغفل البعد الجماعي والتفاعلي للثقافة، ما يؤدي إلى رؤية غير مكتملة وغير متجذرة في الواقع الاجتماعي.

وفي ضوء ذلك، تكون التجربة الثقافية ضمن تشكيل الوعي الاجتماعي منحصرة في الحمولات الدلالية والاجتماعية والنفسية. وهذا يعني أن الرؤية الثقافية تُفسَّر بشكل أساسي من منظور اجتماعي-سيكولوجي، مما قد يؤدي إلى تجاهل التعقيدات الجمالية والفنية. ففي هذه المناهج، يُنظر إلى الأعمال الثقافية باعتبارها تعبيرًا عن الواقع الاجتماعي أو كوسيلة للكشف عن القيم أو المشكلات التاريخية والاجتماعية. يُراد من التحليل الثقافي هنا الكشف عن كيفية تفاعل النصوص مع القيم والمعايير الاجتماعية السائدة، وتأثيرها على الوعي الفردي والجماعي.

وعلى الرغم من التشابه بين التحليل الاجتماعي والدراسات الثقافية من حيث التركيز على الرسالة والمضمون، يبرز الاتجاه الفارق الأساس في طبيعة الرسالة لكل منهما ووظائفها الإيديولوجية؛ إذ المنظومة الثقافية هنا لا تقتصر على إعادة إنتاج الواقع، بل تعبّر عن انحيازات فكرية محددة، توجه التحليل إلى الكشف عن الإيديولوجيات المضمرة أو المعلنة، ما يعني أن هناك علاقة وثيقة بين الثقافة والمجتمع، بالنظر إلى أن الثقافة الاجتماعية ليست كيانًا منعزلًا، بل هي انعكاس للسياقات الاجتماعية والسياسية التي تُصاغ فيها. ومن خلال هذه الرؤية، تصبح

الثقافة أداة لفهم الواقع وتعقيداته، حيث تعكس الأحداث والقضايا المجتمعية وتعالجها، مما يمنحها دورًا جوهريًا في تقديم تفسير شامل للحياة الاجتماعية والإنسانية.

ولعل المنهج النقدي في هذا السياق يركز على الربط بين الرؤية الثقافية والسياق الاجتماعي، مما يضفي على الثقافة بُعدًا وظيفيًا يهدف إلى تفسير الواقع أو تغييره. هذه العلاقة تجعل الثقافة الاجتماعية إطارًا تحليليًا يمكّن الأفراد والمجتمعات من إدراك طبيعة المشكلات التي يواجهونها وكيفية التعامل معها، مما يبرز وظيفتها التنويرية والرسالية.

لكن هذا التركيز على دور الثقافة كأداة رسالية قد يؤدي إلى التقليل من الاهتمام بأبعادها الأخرى، مثل تعقيداتها الفنية وجمالياتها الإبداعية. فعندما تُختزل الثقافة في إطار دورها الاجتماعي والسياسي، قد يُغفل الجوانب التي تجعلها تعبيرًا إنسانيًا غنيًا ومتنوعًا، قادرًا على إثارة الخيال وتجاوز حدود الواقع المباشر. وبالتالي، يمكن القول إن الثقافة الاجتماعية تحمل أهمية مزدوجة: فهي من جهة، تعكس الواقع وتعالج قضاياه، ومن جهة أخرى، تتضمن أبعادًا فنية وجمالية تُثري التجربة الإنسانية. ومع ذلك، قد يؤدي التحيز المفرط نحو الوظيفة الرسالية إلى الحد من فهم الثقافة كعملية متكاملة تشمل البُعدين الاجتماعي والجمالي، مما يضعف قدرتها على تقديم رؤى شاملة ومتوازنة عن الواقع والمجتمع.

لذلك، لا نجد مسوِّغا للنظر إلى الوعي الثقافي من زاوية ضيقة تحصره في التركيز على المضمون الدلالي والاجتماعي فقط. بل ينبغي إيلاء أهمية كبيرة لدور الثقافة الاجتماعية في تشكيل النصوص وتفاعلها مع المتلقي، حيث تمثل هذه الثقافة الإطار الذي تتفاعل من خلاله الأفكار والمفاهيم داخل المجتمع. ومع ذلك، تبرز الحاجة إلى تحقيق توازن دقيق بين دراسة المضمون الاجتماعي للنصوص وبين الاهتمام بالجوانب الجمالية والثقافية التي تضفي عمقًا وتميزًا على الواقع الاجتماعي. ومن شأن هذا التوازن أن يضمن رؤية متكاملة وشاملة تسهم في فهم أكثر عمقًا لطبيعة العلاقة بين الواقع الاجتماعي المأمول والواقع الثقافي الذي تنتمي إليه. وفي هذا الشأن يرى تيري إيجلتون Terry Eagleton (2000، 32) أن الثقافة كان لابد لها أن تحتفظ ببعدها الاجتماعي، لكي يكون بإمكانها أن تمثل نقداً فاعلاً ومؤثراً، ولم يعد باستطاعتها أن تقفز عائدة إلى معناها الباكر الخاص بالتهذيب الفردي وتبعًا لذلك، يُبرز تيري إيجلتون في رؤيته أهمية البعد الاجتماعي للثقافة، معتبرًا أنه من الضروري أن تظل الثقافة مرتبطة بالسياق الاجتماعي الذي تنتمي إليه. ويوضح إيجلتون أن الثقافة ليست مجرد ممارسة فردية تهدف إلى تهذيب الأفراد، أو تحسين ذائقتهم الشخصية كما كان يُنظر إليها في السابق، بل هي منظومة أوسع، تتفاعل مع المجتمع بأسره، وتعكس التوترات والقضايا التي يعيشها.

ولعل هذا ما يعني أن الثقافة، كي تكون نقدًا فعّالًا ومؤثرًا، يجب أن تبقى متجذرة في الواقع الاجتماعي. فالثقافة ليست كيانًا منعزلًا ينحصر في نخبويته أو يُختزل في تحسين الذوق الفردي، بل هي وسيلة لفهم المجتمع وتحليل ظواهره. ومن خلال هذا الارتباط بالسياق الاجتماعي، تكتسب الثقافة قوتها كأداة نقدية، تسهم في تسليط الضوء على القضايا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتطرح تساؤلات جوهرية حول التوجهات والقيم التي تسود في المجتمع. وبالتالي، يرى إيجلتون أن العودة إلى الفهم القديم للثقافة باعتبارها ممارسة فردية للتهذيب أو التعليم الذاتي لم يعد ممكنًا في ظل التطورات الحديثة. فالثقافة اليوم أصبحت تلعب دورًا أكثر تعقيدًا وشمولية؛ دورًا يتيح لها أن تعمل كمرآة تعكس الواقع الاجتماعي، وفي الوقت نفسه كقوة دافعة للتغيير والتحول. وفي هذا الإطار، فإن الثقافة تُعدّ وسيلة لفهم الأنساق الاجتماعية وتحليلها، ما يجعلها ضرورية لأي مشروع نقدي يهدف إلى تغيير المجتمع أو إعادة تشكيله. إذ إن فقدان البعد الاجتماعي للثقافة، يعني تقليص قدرتها على التأثير والنقد، وتحويلها إلى ممارسة فردية بحتة لا ترتبط بالتحديات الحقيقية التي يواجهها المجتمع.

2- التفاعل بين الدراسات الثقافية والاجتماعية/ رؤى متقاطعة و آفاق مشتركة:

تقوم أهمية الربط بين دور الثقافة وفاعلية الواقع الاجتماعي على بناء متكامل يجمع بين ثلاثة مفاهيم مترابطة بشدة، وهي التحيزات الثقافية، والعلاقات الاجتماعية، وأنماط الحياة. ووفقاً لهذا المنظور في تقديرنا، تشير التحيزات الثقافية إلى القيم والمعتقدات التي يتقاسمها أفراد المجتمع أو الجماعات داخله، والتي تشكل أساساً الرؤية المشتركة للعالم. أما العلاقات الاجتماعية، فهي أنماط التفاعل الشخصي والسلوك بين الأفراد داخل المجتمع.

أما أنماط الحياة، فهي تمثل المزيج الحي الذي ينشأ عن التفاعل بين التحيزات الثقافية والعلاقات الاجتماعية. ومن اللافت في هذه النظرية أنها لا تعطي الأولوية السببية لأي من هذين المكونين، فالعلاقة بينهما تُعدّ تبادلية وديناميكية، حيث يتفاعل كل منهما مع الآخر بشكل مستمر. فمثلاً، الالتزام بأنماط معينة من العلاقات الاجتماعية يمكن أن يؤدي إلى صياغة طريقة متميزة للنظر إلى العالم، وفي المقابل، فإن رؤية العالم من زاوية معينة تعمل على تبرير ودعم نموذج محدد للعلاقات الاجتماعية.

ومن هذا المنطلق، يرى رايموند وليامز Raymond Williams (1986، 326) أن كلاً من التحيزات الثقافية والعلاقات الاجتماعية يسهمان في بناء الآخر، وتعزيزه، دون الحاجة إلى تحديد أصل زمني أو سببي لأي منهما. بعبارة أخرى، لا تهتم النظرية بسؤال "من جاء أولاً ؟"، بل تركّز على العلاقة التبادلية والتكاملية التي تجعل كل جانب منهما يدعم الآخر ويمنحه سياقه.

تعنى الدراسات الثقافية بوصفها فنا متشابكا، يوجه الأنظمة الثقافية بكل مفاصلها في الواقع المعاصر. وهي مسار جديد إلى حدٍّ ما، تظهر أهمية الهوية الذاتية للفرد، ويتم التأكيد على ضرورة الحفاظ على القيم المكتسبة في مواجهة التأثيرات الثقافية الاستهلاكية. تُظهر هذه الثقافة الجديدة كيفية تأثير وسائل الإعلام والتسويق على الهويات الثقافية المحلية، حيث أصبحت الثقافة تُستهلك كسلعة تجارية تُعنى بالترفيه، مما يهدد الهوية الثقافية الأصيلة.

النص يسلط الضوء على التحديات التي تواجه الثقافات الهامشية أو الثقافات الفرعية نتيجة هذا المد الثقافي السائد، الذي يروج لثقافة ترفيهية تبعد عن القيم الثقافية العميقة. كما يناقش التوتر بين مفهومي التغاير والتجانس، والانفصال والدمج، مشيرًا إلى أن هذه الصراعات أصبحت سمة بارزة في ثقافة الألفية الثالثة التي تتأثر بنظريات ما بعد الحداثة.

يُبرز النص أيضًا تأثير هذا التحول على الهويات الثقافية، حيث أدت هذه التغيرات إلى نشوء أزمة هوية معقدة، ترتبط بإحباطات اجتماعية وثقافية، وتخلق جيلًا ضائعًا أو مشوه الهوية. هذه الأزمة الثقافية مرتبطة بالعديد من التحديات التي يواجهها الأفراد والمجتمعات نتيجة للضغط الثقافي والسياسي، مما يعكس حالة من التفكك في الوعي الاجتماعي.

في النهاية، يشير النص إلى أن الكتابة والفكر الثقافي في هذا العصر يعكسان هذا التوتر بين الثقافة النخبوية والمنتجات الثقافية الشعبية أو الهجينة، مع التركيز على تأكيد ثقافة التمرد على السلطة الثقافية السائدة وفتح المجال لهويات جديدة تتشكل في سياق ما بعد الحداثة.

غير أن هناك تساؤلات هامة حول العلاقة بين المعايير الاجتماعية ومفاهيم الدراسات الثقافية Cultural studies في سياق الأنساق الثقافية، خصوصًا في ظل انتشار النقد الثقافي، بالإضافة إلى تأثير هذه المعايير في البيئة المعرفية العربية.

1-2 تمظهرات معايير الدراسات الثقافية في المفاهيم النقدية:

تكمن هذه المعايير في المبادئ والقيم التي تحكم السبل الثقافية لأي مجتمع. وقد تكون مستمدة من تقاليد ثقافية تاريخية أو من نظريات نقدية حديثة تتفاعل مع الواقع الثقافي المعاصر. على الرغم من أن هذه المعايير لا تُعتبر ثابتة أو أحادية، بل تتأثر بالتغيرات الاجتماعية والسياسية، ما يجعلها متغيرة وفقًا لتحولات البيئة الثقافية. على سبيل المثال، في السياق الغربي، تطورت المفاهيم النقدية لتتضمن قضايا مثل التعددية الثقافية والمساواة والعدالة الاجتماعية. لكن في بيئات أخرى، مثل البيئة العربية، قد ترتبط المعايير الثقافية بالموروثات الدينية والاجتماعية.

2-2 تطبيق المعايير الثقافية في ظل شيوع الدراسات الثقافية والنقد الثقافي:

مع الانتشار المتزايد للدراسات الثقافية والنقد الثقافي، بدأت المفاهيم النقدية في تضمين معايير ثقافية أوسع، تتجاوز الأدب والفن إلى أبعاد اجتماعية وثقافية وسياسية أعمق. وغالبا ما تتعامل الدراسات الثقافية الحديثة مع النصوص الأدبية أو الفنية كجزء من شبكة أوسع من العلاقات الثقافية

والسياسية، ويُنظر إليها كوسيلة لفهم الواقع الاجتماعي والثقافي. وفي هذا السياق، لا يقتصر النقد الثقافي على تحليل النصوص فقط، بل يتجاوز ذلك إلى تحليل القوى الاجتماعية والسياسية التي تؤثر في إنتاج الثقافة، ويأخذ في اعتباره السياقات الاقتصادية، الجنسانية، والعرقية التي تشكل الفنون والأدب.

3-2 مصير الدراسات الثقافية والنقد الثقافي في البيئة المعرفية العربية:

بالنسبة إلى البيئة المعرفية العربية، تواجه الدراسات الثقافية والنقد الثقافي تحديات كبيرة؛ حيث لا يزال هناك تأثير كبير للسلطات السياسية والدينية على المناقشات الثقافية، مما يحد من حرية التعبير النقدي. كما أن هناك تباينًا كبيرًا بين المفاهيم الثقافية الغربية والمفاهيم الثقافية العربية، مما يؤدي إلى صعوبة تطبيق بعض الأدوات النقدية الغربية في سياقات محلية. كما أن البيئة المعرفية العربية غالبًا ما تظل تحت تأثير القوى التاريخية والسياسية التي تميل إلى تقليل قيمة النقد الثقافي باعتباره أداة للتحليل الجاد والعميق. لكن مع ذلك، بدأ النقد الثقافي في العالم العربي في التوجه نحو قضايا الهوية، والمقاومة، والديمقراطية، والعدالة الاجتماعية، مستفيدًا من الدروس المستفادة من التجارب الثقافية العالمية، في مقابل الدور الفاعل في تقليص مساعي السرديات الكبرى، واستبدال الدراسات الثقافية بهذه السرديات المتعارف عليها (الرويلي، م، 2002، 140)، إيمانًا من منظري الدراسات الثقافية من أمثال: أمثال ميشيل فوكو Michel Foucault، وألتوسير Louis Althusser، ودريدا Jacques Derrida في مجال الدراسات الأدبية، وفنسنت ليتش Leitch.Vincent، وريموند وليامز Raymond Williams، وستورات هول Stuart Hall، وستيفن غرينبلاتStephen Greenblatt، وفرانز فانون Frantz Omar Fanon وجورج أورويل George Orwell وفيرنادو أورتيز Fernando Ortiz أن تجديد المعايير المعرفية، والإبداعية، والثقافية، شرط من شروط التحديث، والتطور، وبما يستجيب له الوعي الاجتماعي الجديد، ويذعن له الذوق المنبثق من الصورة الخارجية، والانفتاح على فرضيات معرفية جديدة ضمن موجهات الثقافة المشتركة بين جميع الناس. وقد باتت هذه المعايير تدمج بقية الأجناس المعرفية والموجهات الثقافية الجديدة في إنتاج النص. وجاء في كتاب [دليل الناقد الأدبى] ما يشر إلى أن الدراسات الثقافية بلغت ذروتها مع ريموند وليامز في المنتصف الثاني من القرن العشرين؛ إذ شهدت تحولات كبيرة في تاريخ الدرس الأدبي والثقافي عموما، وشهدت نضوج البنيوية، والأنثرولبولوجيا، ونقد النماذج العليا، فصدر في عقد الخمسينيات أهم ما نعرف من إنتاج نورثروب فراي، وأبرامز، وبارت، ولاكاك، ورومان ياكوبسون، وأخرين غيرهم (فيدوح، ع، 2017، 114)

ولعل المتتبع لمثل هؤلاء المنظرين يجد أن هناك تحولات جمة طرأت على الدراسات الثقافية في العصر الحديث في ظل تغيرات المعايير الاجتماعية، التي أحدثتها العولمة، وتطور وسائل الاتصال. ومع انتشار هذه الوسائل، بدأت البيئة الثقافية العربية على وجه التحديد تتحول بعيدًا عن الثقافة النخبوية التقليدية، التي كانت تقتصر على فئة معينة، نحو ثقافة أوسع وأكثر شمولية، وفي هذا السياق، بدأت تتبلور ثقافة بديلة تعكس التحولات الجديدة في وعي الأفراد والجماعات. وتستند هذه الثقافة إلى الأنماط الاجتماعية الحديثة والتغيرات التي طرأت على تفاصيل الحياة اليومية، حيث أصبحت تتسم بالتوتر بين اتجاهين رئيسيين: من جهة، الرغبة في استعادة الثقافة الشعبية، باعتبارها تمثل صوت الناس وتعبيرًا عن واقعهم،

ومن جهة أخرى، تسعي إلى تسليط الضوء على ثقافة الفئات المهمشة وإبراز وجودها. إلى جانب ذلك، تبرز دراسة الثقافة الجماهيرية بوصفها ظاهرة تحمل طابعًا أيديولوجيًا قسريًا يشكل إطارًا مفروضًا على المجتمع. من هذا المنظور، تسعى دراسة الثقافة الشعبية إلى التركيز على ما يعبر عن حيوات الناس العاديين وتجاربهم اليومية، باعتبارها جزءًا أساسيًا من تكوينهم الثقافي. حيث تُطرَح هذه الثقافة كنقيض للثقافة النخبوية التي غالبًا ما تكون مرتبطة بمفاهيم محبي الجمال والنخب الأكاديمية، ما يجعلها أقرب إلى ملامسة الواقع الحي للناس، ومشاركتهم همومهم وتطلعاتهم.

ولنا في نشأة الدراسات الثقافية ما يوضح ارتباطها بمتغيرات الحياة الاجتماعية التي كان مصدرها حينذاك كان مصدرها جامعة بيرمنجهايم Brimingham من طروحات يسارية، قامت بتطبيقها على جملة من الفنون الشعبية كتعويض عن ارتكاسات فكر الواقعية النقدية، والفكر الماركسي بشكل عام، وهو التوجه الذي أسهم في تطور الدراسات الثقافية كحقل نقدي يسعى إلى تحدي النظم الثقافية السائدة والهيمنة الفكرية لثقافة المركز. وهو ما يعني أن الدراسات الثقافية، في إطار مبادراتها التأسيسية، انطلقت من رغبة واضحة في تعزيز ثقافة الهامش، أي الثقافات والتجارب التي تم تهميشها أو قمعها بفعل الهيمنة الثقافية التقليدية. وقد جاءت هذه الحركة متأثرة بثقافة اليسار الجديد، الذي تبنى موقفًا نقديًا جذريًا من البنى الثقافية والاجتماعية القائمة. وكان الهدف الأساسي لهذا التوجه هو إعادة النظر في القيم والأفكار التي تهيمن على المشهد الثقافي، واستبدالها برؤى أكثر شمولية وتعددية تُعطي الهامش حقه في التعبير والمشاركة.

في هذا السياق، ارتبطت الدراسات الثقافية بعدد من التيارات الفكرية التي أفرزتها أفكار ما بعد الحداثة، مثل النسوية التي تسعى إلى إعادة صياغة المفاهيم المتعلقة بالنوع الاجتماعي، وما بعد البنيوية التي تنتقد البنى الفكرية الجامدة وتعيد تفكيكها، والتفكيكية التي تركز على تحليل النصوص الثقافية للكشف عن التناقضات الكامنة فيها، والسيميائية التي تدرس العلامات والرموز الثقافية لفهم كيف تشكل المعاني، والتاريخانية الجديدة التي تعيد قراءة النصوص والظواهر الثقافية في سياقها التاريخي والاجتماعي المتغير.

وتتقاطع هذه التيارات مع الفكر الراديكالي الذي يدعو إلى التغيير الجذري في الثقافة، حيث يرى أن الوضع الثقافي الراهن يحمل في طياته ترسيخًا للتبعية الغاوية، ويتطلب ثورة فكرية لتحرير الأفراد والمجتمعات من قيود الأنماط الثقافية السائدة. من هذا المنطلق، جاءت الدراسات الثقافية لكسر حدود المركزية الثقافية، وتقديم رؤية جديدة قائمة على التنوع والعدالة، مستمدة إلهامها من التجارب المهمشة والقضايا المثيرة للجدل التي تتناغم مع متطلبات التغيير في الفكر الحديث.

وفي ضوء ذلك، ارتبط موضوع الدراسات الثقافية بمركز الدراسات الثقافية المعاصرة CCCS في جامعة بيرمنجهايم عام 1971 في نشر صحيفة أوراق عمل في الدراسات الثقافية، تناولت وسائل الإعلام Media والثقافة الشعبية، والثقافات الدنيا، والمسائل الأيديولوجية،.. والمسائل المرتبطة بالجنوسة، والحركات الاجتماعية، والحياة اليومية، وموضوعات أخرى متنوعة. وعُدَّ تأسيس هذه الصحيفة أمرًا مثيرا وممتعا؛

لأنه يبين أن القائمين على جامعة بيرمنجهايم يتخذون الثقافة الشعبية ووسائل الإعلام مأخذ الجد،... وقد أثرت [هذه الصحيفة] تأثيرا كبيرا؛ إذ قدمت نوعًا مما يمكن أن نسميه مصطلح المظلة Umbrella term ذلك الذي يغطي تلك المدارس التي تعمل الآن في مجالات عديدة، التي وصفتها بالنقد الثقافي" (آيزيرجر، آ، 2003، 31)

في ظل هذه المبادرات التأسيسية، استمر مشروع الدراسات الثقافية في مواجهة ثقافة المركز، ساعيًا إلى إعلاء شأن ثقافة الهامش التي تتقاطع مع توجهات اليسار الجديد، فانسجمت هذه الثقافة مع موضوعات أفكار ما بعد الحداثة، مثل النسوية، وما بعد البنيوية، والتفكيكية، والسيميائية، والتاريخانية الجديدة. وقد تبنت هذه الموضوعات نهجًا تغييرياً ينطلق من الفكر الراديكالي، الذي يتميز بموقفه النقدي الجذري من كل ما هو سائد. هذا التوجه كان انعكاساً لموقف اليسار الجديد، الذي دعا إلى إحداث تغيير شامل وجذري في الثقافة والممارسات المرتبطة بها؛ مع البروز اللافت لثقافة الطبقة العاملة في بريطانيا - في الستينات والسبعينات – ضمن منظور المهمة السياسية.. حينما بدت الهوية الثقافية القومية مرتبطة مع الآثار الباقية الراقية للثقافة [شكسبير] وتقاليد الأدب الإنجليزي، مثلا، فكانت واقعة دراسة الثقافة الشعبية هي عينها فعل مقاومة بطريقة مختلفة عما هي عليه في الولايات المتحدة حيث عينت الهوية القومية غالبا ضدَّ الثقافة الراقية" (كولر، ج، 2004، 58)

وتماشيا مع التصور الحديث، إذا كان الإنتاج المعرفي يمثل محاولة لاكتشاف جوهر الحياة في أدق تفاصيلها، فإن مظاهر الحياة في نظر البعض تكشف عن ميل واضح نحو إخصاب اللامعقول، مما يؤدي إلى حالة من الغموض المربك. ويعود هذا الغموض إلى الإنسان ذاته، الذي أزاح المعنى من جوهر النصوص، وأبعد أي إمكانية للإجماع على أفكار مشتركة. وهكذا أصبحت حركة الحياة في نظر الكثير من المنظرين تميل إلى الانحراف عن الحقيقة، مع تعزيز التباين والخلاف كسمات جوهرية للواقع.

في ظل هذا الاتجاه، بدأت الصورة الإبداعية مع جيل الألفية الثالثة تعبر عن حالة من اللاتناهي في التعبير، حيث غالبًا ما تتناول موضوعات لا تحمل بالضرورة معنى واضحًا. لم يعد الإنتاج الثقافي يسعى وراء القيمة، أو يحاول الكشف عن جوهر خفي، أو تفسير لغز غامض. بل بات يتجه نحو تعميق الاختلافات، وإبراز التباينات، وترسيخ المعنى السطحي، بما يتماشى مع مفهوم "عمق السطح" الذي أشار إليه نيتشه، حين تحدث عن الذين "يغطسون رؤوسهم في المستنقع وهو ما لا يعتبر دليلا على العمق، ولا على التفكير العميق، إنهم مفكرو الحضيض"(نيتشيه، ف، 2013، 232)، في تعبير يعكس انفصال الإبداع الحديث عن التقاليد القائمة على السعي إلى فهم القيم أو الكشف عن الجوهر؛ بالنظر إلى أن الدراسات الثقافية المعاصرة بدأت تتبنى فكرة "عمق السطح"، التي تركز على ما يظهر على السطح بدلاً من السعي إلى تفسير ما هو خفي أو غامض. ولعل هذا المفهوم، الذي استلهمه نيتشه، يعبر عن رؤية نقدية لأولئك الذين يدّعون العمق الفكري من خلال الغوص في الأمور السلبية، أو المظلمة دون إضفاء معنى حقيقي أو بناء. في وصفه لـ"مفكري الحضيض"، ينتقد نيتشه الذين يفتقرون إلى رؤية تتجاوز الظواهر السطحية، معتبرًا أن غوصهم في "المستنقع" ليس دليلًا على تفكير عميق، بل انعكاسًا لتقوقعهم في محدودية الفهم.

وفي هذا السياق، تشير الدراسات الثقافية إلى تحول نحو التركيز على ما يظهر على السطح كعنصر كافٍ لتحليل الواقع الثقافي والاجتماعي. ويعكس هذا الاتجاه تخليًا عن المفاهيم التقليدية التي تسعى إلى التفسير العميق، واستبدالها بمقاربة تستكشف الظواهر كما تبدو في الواجهة، معتبرة أن السطح بحد ذاته يمكن أن يحمل عمقًا مفاهيميًا من خلال التباين، والتناقض، أو حتى الغموض الظاهري.

3- مستقبل الوعي الاجتماعي في ظل الدراسات الثقافية:

يتجه مستقبل الوعي الاجتماعي في ظل الدراسات الثقافية نحو إعادة تعريف شامل لطريقة فهم المجتمعات لنفسها؛ وللعالم من حولها. ويرتبط هذا المستقبل بالتغيرات العميقة في البنى الاجتماعية والثقافية، حيث تعمل الدراسات الثقافية على تحليل هذه التحولات وإعادة صياغة الأطر التي يُبنى عليها الفهم الإنساني للهوية، القيم، والانتماء، نظرًا إلى أن التساؤل حول الهوية يعد من دون شك دليلا على الصحة الفكرية، وعلى حيوية الأفراد والشعوب، إنه منشط قوي جدا لقدرتهم على التكيف مع إكراهات محيطهم وظروفهم العامة" (أراق، س، 2008، 2015) . غير أن الدراسات الثقافية تُعنى بتفكيك النظم الفكرية التقليدية التي كانت تعتمد على سرديات كبرى ومركزية، لتفسح المجال لفهم أكثر تعددية وشمولية للثقافة والمجتمع. في هذا السياق، يصبح الوعي الاجتماعي أقل ارتباطًا بالتقاليد الجامدة وأكثر انفتاحًا على التعدد والاختلاف. ستؤدي هذه العملية إلى تحفيز المجتمعات على مراجعة منظوماتها القيمية والأيديولوجية، وتبني تصورات جديدة تُقدّر التنوع الثقافي والاجتماعي.

ومن المظنون لدينا أنه في المستقبل، سيؤدي هذا المنحى إلى تعزيز قدرة الأفراد والمجتمعات على إدراك التأثيرات المتبادلة بين الدراسات الثقافية بمفاصلها الجديدة وسلطة الوعي الاجتماعي؛ حينها ستصبح الأسئلة المتعلقة بالهوية، والنوع الاجتماعي، والطبقة، والعِرق محورية في النقاش العام للدراسيات الثقافية، مما يُسهم في بناء وعي اجتماعي جديد، يعكس تعقيدات الواقع ويُعزز من قدرة الأفراد على مواجهة التحديات الجديدة.

وفي ضوء ذلك، تتجلى أهمية الدراسات الثقافية في مواجهة التأثير المتزايد للعولمة والثقافة الرقمية، حيث تعمل على كشف التوترات بين المحلي والعالمي. وفي هذا الإطار، يساعد الوعي الاجتماعي المتأثر بالدراسات الثقافية على الموازنة بين الحفاظ على الخصوصيات الثقافية، والانفتاح على تأثيرات الثقافات الأخرى. علاوة على ذلك، يؤدي التركيز على الجماعات المهمشة والهويات التي تم تجاهلها سابقًا إلى بناء وعي اجتماعي أكثر عدالة وشمولية. وفي ضوء ذلك، تسعى الدراسات الثقافية إلى تسليط الضوء على قضايا العدالة الاجتماعية، والمساواة، وحقوق الإنسان، مما يجعل الوعي الاجتماعي أكثر قدرة على مواجهة التحديات المرتبطة بالتغيرات الثقافية بجميع أشكالها. وفي ظل هذا التطور، سيتحول الوعي الاجتماعي إلى منظومة ديناميكية، تتسم بالمرونة والتكيف مع التغيرات المستمرة في العالم. وستصبح القضايا المتعلقة بالتكنولوجيا، والذكاء الاصطناعي، والبيئة، جزءًا من النقاش الثقافي والاجتماعي، مما يُعمق من فهم تأثير هذه القضايا على الحياة اليومية، ويُعزز من استجابة المجتمعات للتحديات المستقبلية.

واستنادًا إلى هذا الطرح، فإن مستقبل الوعي الاجتماعي في ظل الدراسات الثقافية هو مستقبل متنوع، وعادل، وشامل، يعكس تعقيدات العصر ويستجيب لاحتياجات الأفراد والمجتمعات؛ بطرق تتجاوز التقاليد القديمة، وتُرسي قواعد جديدة للفهم والتفاعل الاجتماعي.

**

4- المصادروالمراجع

الكتب

- آيزبرجر، آرثر. (2003). النقد الثقافي- تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية. ترجمة: وفاء إبراهيم، المجلس الأعلى للثقافة.
- إيجلتون، تيري. (2000). فكرة الثقافة، ترجمة: ثائر ديب، دار الحوار.
- إليوت، توماس. (2014). ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة: شكري محمد عياد، دار التنوير.
- الرويلي، ميجان. (2002). دليل الناقد الأدبي، الطبعة 3، المركز الثقافي العربي.
- كولر، جوناثان. (2004). النظرية الأدبية، ترجمة: رشاد عبد القادر، دمشق، سوريا: وزارة الثقافة.
- نيتشيه، فريدريك. (2013). الفجر، ترجمة: محمد الناجي، المغرب: دار إفريقيا الشرق.
- صالح، زياد. (2016). آفاق النظرية الأدبية من المحاكاة إلى التفكيكية، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان: دار التنوير للطباعة والنشر.
- رايموند، وليامز. (1986). الثقافة والمجتمع 1956م، ترجمة: وجيه سمعان، القاهرة، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

المقالات:

- أراق، سعيد. (2008). مدارات المتفتح والمنغلق في التشكيلات الدلالية والتاريخية لمفهوم الهوية، مجلة عالم الفكر، (36)، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،
- عوض الغرايبة، أحمد محمد. الأنساق القيمية وعلاقتها بالتغيّر الاجتماعي لدى الشباب الجامعي: دراسة عبر ثقافية. مجلة دراسات العلوم التربوية، 44 (4)
- فيدوح، عبد القادر. (2017). الدراسات المخملية والنقد الثقافي، مجلة آداب ذي قار، (24)، العراق،